المسلمون والعيش المشترك

سعادة الدكتور غيث بن مبارك الكوراري

وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية - دولة قطر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

بداية أبارك لكم حلول شهر رمضان المبارك، الذي أنزل فيه القرآن، كتاب الله المبين، وتحققت فيه أعظم الانتصارات للإسلام والمسلمين. وأسأل الله عز وجل أن يرفع عن العالمين هذه الجائحة التي حلت بأهل الأرض جميعا، كما نتضرع إليه سبحانه بأن يرفع الوباء، ويعجل بالدواء وأن يحفظ أهل قطر، وكافة شعوب المسلمين.

الحديث عن العيش المشترك في وسطنا الإسلامي، حديث عن موضوع تجاوز التصور النظري إلى الممارسة الفعلية المفعلة في واقع المجتمع منذ فترة نزول الوحي على رسولنا الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

قال الله تعالى:

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ سورة الحجرات، الآية 13

ونقرأ في خطبة حجة الوداع : ﴿أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي

فضل إلا بالتقوى- ألا هل بلغت.. اللهم فاشهد. قالوا: نعم- قال: فليبلغ الشاهد الغائب﴾

ومن مقتضيات تعارف الشعوب والقبائل، إطلاعها على ثقافات بعضها البعض، ومعرفة سلم القيم المعتمدة لديها، وآلياتها في التفكير والنظر ، ومعرفة تاريخها، ولغاتها، وبلاغتها، وعاداتها وجميع ما يبرز فعلها الحضاري..

وكل هذه الأمور ليست تتأتى إلا بالمجاورة والاطلاع الأكبر والمعايشة المتواصلة.

مبدأ التعارف، جعل شعوب الشرق تراكم عبر مسار طويل، وخلال ظروف متفاوتة تراوحت بين المنعة والضعف، تجارب غنية لتدبير مسألة الحق في الاختلاف الفكري والتنوع الثقافي، ومسألة حقوق المجموعات الدينية والاثنية والثقافية واللغوية التي استمرت في العيش بين المسلمين.

وقد سجل التاريخ الإسلامي صورا ناصعة للحقوق وآداب الحقوق التي تمتعت بها تلك المجموعات غير المسلمة في مجتمع المسلمين قل نظيرها بين المنظومات الثقافية الأخرى.

ولما كانت الحقوق في الإسلام لا تتأسس خارج الشريعة الغراء ومقاصدها الشريفة، فقد روعي فيها الانسجام مع المصدرية الربانية، وروعي أن تكون ثابتة، فكان تعريف الحق "إنه الثابت الذي لا يجوز إنكاره"، وقطع بأنه إنساني عام شامل، وإنه عطاء الله تبارك وتعالى لخلقه، يعم البر والفاجر والمسلم وغيره، والأسود والأحمر، والعزيز والفقير...

في هذا الإطار أقر الإسلام لكل مكونات المجتمع حقوقا سبقت صدور البيان العالمي للأقليات، وسبقت صدور البيانات الأخرى المتعلقة بمكافحة التمييز، وتأكيد الحقوق اللغوية والثقافية، وبيانات حقوق الإنسان.

وتكفي بعض النماذج من العهد النبوي دليلا على ما كفله الإسلام من حقوق لغير المسلمين في المجتمع الإسلامي، فدستور المدينة حدد بدقة متناهية الحقوق والعلاقات بين كل الفصائل الدينية والاثنية في المجتمع المديني، قال المستشرق الروماني كونستانس جورجيو وزير خارجية رومانيا سابق في كتابه "نظرة جديدة في سيرة الرسول محمد":

"حوى هذا الدستور اثنين وخمسين بندا، كلها من رأي رسول الله. خمسة وعشرون منها خاصة بأمور المسلمين، وسبعة وعشرون مرتبطة بالعلاقة بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى، ولاسيما اليهود وعبدة الأوثان. وقد دون هذا الدستور بشكل يسمح لأصحاب الأديان الأخرى بالعيش مع المسلمين بحرية، ولهم أن يقيموا شعائرهم حسب رغبتهم، ومن غير أن يتضايق أحد الفرقاء... و في حال مهاجمة المدينة من قبل عدو عليهم أن يتحدوا لمجابهته وطرده".(صفحة 192 من الكتاب المذكور، ترجمه عن الفرنسية الدكتور محمد التونجي، الدار العربية للموسوعات، بيروت1983 م)

أسس دستور المدينة لمجتمع الأمة، المتعدد، المتآلف، المتكاتف، المتكافل، المتعايش.. بالجملة أسس لمجتمع المساواة، المجتمع الآمن، مجتمع الحقوق.

وفي نفس السياق نجد السيرة النبوية قد عكست حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على تأكيد شمول العدل كل الناس على اختلاف عقائدهم، قال صلى الله عليه وسلم:

" من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاما "

(صحيح البخاري، أبواب الجزية والموادعة، باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم، حديث رقم 2995، سنن ابن ماجة، كتاب الديات، حديث رقم 2686، صحيح ابن حبان، كتاب السير، باب الذمي والجزية، حديث رقم 4881...)

وقد سار الخلفاء الراشدون على نفس النهج في رعاية حقوق من استمر في العيش بين مجتمع المسلمين، هكذا استوقف عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أهل إيلياء مؤرخي نصارى الشرق كالمؤرخ القبطي المصري، جورجيوس ابن العميد والطبيب المؤرخ بطريرك الإسكندرية أوتيخيوس وغيرهما لما له من رمزية التسامح.

قال المؤرخ القبطي المصري، جورجيوس ابن العميد أبو إلياس بن أبي المكارم بن أبي الطيب المعروف بالمكين المتوفى سنة 672هـ موافق 1273م في كتابه: "**تاريخ المسلمين من صاحب شريعة الإسلام أبي القاسم محمد إلى الدولة الأتابيكية**" الذي اعتنى المستشرق الهولندي إربينيوس بنشر نصه العربي مرفوقا بترجمة لاتنية بلايدن Leiden سنة 1625م، بعد أن أورد مقتطفا من نص كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أهل إيلياء قال:

"فلما دخل المدينة جلس في وسط صحن كنيسة القيامة، فلما حان وقت الصلاة قال عمر رضي الله عنه: أريد أصلي، قال البطريرك: يا أمير المؤمنين، صل موضعك. قال: لا. وخرج خارج الكنيسة وصلى على باب الدرجة على باب الكنيسة وحده، ثم جلس وقال للبطريرك: إن صليت داخل الكنيسة كان المسلمون يأخذونها بعدي ويقولون: هنا صلى عمر. وكتب لهم خطا أن لا يصلي أحد المسلمين على الدرجة إلا واحدا واحدا،

ولا يجمع فيها الصلاة ولا يؤذن عليها... ومضى إلى بيت لحم ودخل إلى كنيستها، وصلى عند الحينة التي ولد فيها السيد المسيح وكتب سجلا أن لا يصلى في هذا الموضع من المسلمين إلا رجلا بعد رجل ولا يجمع فيه صلاة ولا يؤذن فيه. وعاد إلى المدينة"

(تاريخ المسلمين من صاحب شريعة الإسلام أبي القاسم محمد إلى الدولة الأتابيكية، ص 28ـ29)

والجدير بالذكر أن نفس الخبر مع اختلاف طفيف ورد عند الطبيب المؤرخ النصراني بطريرك الإسكندرية أوتيخيوس سعيد بن البطريق المتوفى سنة 329هـ موافق 940م في كتابه "نظم الجوهر" أو (التاريخ المجموع)*Alexandrini Anali* ، المجلد الثاني ص:285ـ 290، طبعة 1658م.

ورواية ابن البطريق وابن العميد تدلان على الأثر الطيب الذي أحدثه خبر عهد الأمان الذي عقده الخليفة عمر لأهل إيلياء (بيت المقدس) في نصارى الشرق عامة، والصدى الجميل الذي جعل رجلا وجيها مثل البطريرك سفرونيوس يبقن بحسن تصرف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وسمو أخلاقه، وهو ما أسس لنوع من"المبرة" المنصوص عليها في قوله تعالى: " **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين**" (سورة الممتحنة الآية 8).

وفي نفس السياق تستوقفنا قصة تقاضي أمير المؤمنين علي رضي الله عنه مع يهودي عند قاضي المسلمين شريح بن الحارث بن قيس الكندي الكثيرين، وقد حكم فيها القاضي المذكور لليهودي لعدم إجازة شهادة الحسن لأبيه، عملا بـ"شهادة الولد لوالده لا تجوز"، وقد قال اليهودي بعد أن رأى كيف ساوى بينه القاضي وبين أمير

المؤمنين علي: "أمير المؤمنين جاء معي إلى قاضي المسلمين فقضى عليه ورضي، صدقت والله يا أمير المؤمنين إنها لدرعك سقطت عن جمل لك فالتقطتها".

وتوالت هذه الصور الدالة في سياقات متعددة، فوجدنا محمدا بن أبي بكر يكتب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه يسأله عن مسلم زنى بنصرانية، فأجابه: "**وأما المسلم الذي زنى بنصرانية فأقم عليه الحد، وارفع النصرانية إلى أهل دينها**". وأورد صاحب المحلى إنه "**من الوفاء لهم بالذمة أن يخلى بينهم وبين "أهل" دينهم وشرائعهم، تكون ذنوبهم عليهم**".

وسوف تستمر صورة تلك المبرة، وفق شروطها الشرعية فيما كتبه العلماء في حقوق أهل الذمة، ويحضرني في هذا السياق نص بديع لأبي العباس أحمد بن إدريس الصنهاجي القرافي المتوفى عام 684هـ في كتابه "أنوار البروق في أنواء الفروق". قال في الفرق التاسع عشر والمائة بين قاعدة بر أهل الذمة وبين قاعدة التودد لهم:

وأما ما أمر به من برهم من غير مودة باطنية، فالرفق بضعيفهم وسد خلة فقيرهم وإطعام جائعهم، وإكساء عاريهم ولين القول لهم على سبيل اللطف لهم والرحمة لا على سبيل الخوف والذلة واحتمال إذايتهم في الجوار مع القدرة على إزالته لطفا منا بهم لا خوفا وتعظيما والدعاء لهم بالهداية وأن يجعلوا من أهل السعادة ونصيحتهم في جميع أمورهم في دينهم ودنياهم وحفظ غيبتهم إذا تعرض أحد لأذيتهم وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم وأن يعانوا على دفع الظلم عنهم وإيصالهم لجميع حقوقهم وكل خير يحسن من الأعلى مع الأسفل أن يفعله ومن العدو أن يفعله مع عدوه فإن ذلك من مكارم الأخلاق ...(إلى أن يقول) ثم نعاملهم بعد ذلك بما

تقدم ذكره امتثالا لأمر ربنا عز وجل وأمر نبينا صلى الله عليه وسلم" (أنوار البروق في أنواء الفروق، ضبط وتحصيح خليل منصور، ج3 ص 31، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت 1998م)

ومن الصور الناصعة لحفظ العيش المشترك، وصيانة حقوق الآخر غير المسلم في المجتمع المسلم، أعرض لكم هذه الصورة الناصعة التي تحققت زمن فتح الناصر صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس، أنقلها بنص شاهد من أهلها؛ يقول ستيفن رنسيمان في الجزء الثاني من تاريخ الحروب الصليبية

"الواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية، فبينما كان الفرنج منذ ثماني وثمانين سنة يخوضون دماء ضحاياهم، لم تتعرض الآن دار من الدور للنهب، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه؛ إذ صار رجال الشرطة، بناء على أوامر صلاح الدين، يطوفون بالشوارع والأبواب يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين... وأعلن صلاح الدين أنه سوف يطلق سراح كل شيخ، وكل امرأة عجوز. ولما أقبل نساء الفرنج اللائي افتدين أنفسهن، وقد امتلأت عيونهن بالدموع، فسألن صلاح الدين عن مصيرهن، بعد أن لقي أزواجهن أو آباؤهن مصرعهم أو وقعوا في الأسر، أجاب بأن وعد بإطلاق سراح كل من في الأسر من أزواجهن، وبذل للأرامل واليتامى من خزانته العطايا كل بحسب حالته, والواقع أن رحمته وعطفه كان على نقيض أفعال الغزاة المسيحيين في الحملة الصليبية الأولى"

(تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور السيد الباز العريني، ص753، طبعة دار الثقافة بيروت لبنان)

هذه الصورة الناصعة، صورة تأسست كما قلنا عن المفهوم الشرعي المعتدل للعيش المشترك والتسامح مع المخالفين.

ولكي نقف عند دلالاتها العظيمة لا بأس أن نقارنها بصورة معاكسة من سجلات تاريخ الآخر صادرت حق الاختلاف، ومازال بعض أثرها يؤجج موجات الكراهية ضد الإسلام والمسلمين إلى يوم الناس هذا.

فحين اقتحم الصليبيون أنطاكيا بعد حصار استمر ستة أشهر ، انتقموا من أهلها وأذاقوهم صنوف العذاب، وقد حكى راوول د كاين *Raoul de Caen* عن كيف كان الجنود الجوعى من الصليبيين يسلقون البالغين من المسلمين في القدور، وكيف كانوا يشوون الأطفال الصغار ويلتهمونهم بنهم.

بينما يذكر مؤرخ مجهول أن بعض الجنود "كانوا يقطعون جثث القتلى إربا إربا ويطهونها لتكون لهم طعاما".

وحين احتل الصليبيون بيت المقدس يوم الجمعة 23 شعبان 492 هـ موافق 15 يوليو 1099م أجروا السيف في أهلها مثلما صنعوا في أنطاكيا، يقول المؤرخ المجهول في(إيماءة الفرنجة وغيرهم من الناس أثناء الحج إلى القدس) *Gesta Francorum et aliorum Hierosolimitanorum*" :

"كان بعض جنودنا يقطعون رؤوس أعدائهم، بينما كان البعض يعلقها على رؤوس الرماح، ويلقي البعض الآخر بالأحياء من أعلى الأبراج، بينما كان آخرون يطيلون تعذيبهم بتحريقهم. وكنا نرى أشلاء الرؤوس والأيدي والأرجل ملقاة في الشوارع، وكنا نزيحها لنفسح الطريق للمرور، ولم يكن هذا إلا قليل مما يمكن مقارنته بما وقع عند

هيكل سليمان.. وإذا رويت الحقيقة، ستتجاوز حدود ما يمكنكم تصديقه، لقد كانت الدماء تصل إلى كواحل الرجال".

وليس ما ذكر صاحب **الإيماءة** حدثا مفردا في ملاحقة المخالفين خاصة في أزمنة الحروب، فهذا **القمبيطور روديرغو دياث** قد شدد الخناق على بلنسية في أرض الأندلس كما روى ابن علقمة أبو عبد الله بن خلف (المتوفى سنة 509 هجرية) في "البيان الواضح عن الملم الفادح" حيث قال:

"وأيقن أهل بلنسية بالهلكة، وغلب على الناس اليأس، وضاقت النفوس، وزاد حقد العدو وقسا قلبه، وهلك أكثر الناس جوعا، وأكلت الجلود والدواب وغير ذلك، ومن فر من المحلة، فقئت عيناه، أو قطعت يداه أو دقت ساقاه أو قتل، فرضي الناس بالموت في المدينة، وزادت هذه الأزمة على أزمة طليطلة أضعافا، لانفساح مدة الحصار، وتضاعف حقد العدو"

بينما روى ابن الكردبوس في تاريخه أن أتباع القمبيطور" **كانوا يشنون على المسلمين الغارات ويكشفون الحرمات، يقتلون الرجال ويسلبون الأطفال، وكثير منهم ارتد عن الإسلام ونبذ شريعة النبي صلى الله عليه وسلم، إلى أن انتهى بيعهم للمسلم الأسير بخبزة وقدح خمر ورطل حوت، ومن لم يفد نفسه قطع لسانه وفقئت أجفانه، وسلطت عليه الكلاب الضارية، فأخذته أخذة رابية".**

وتكررت مشاهد الإبادة والملاحقة في الأندلس عند سقوطها وطيلة ثلاثة قرون بعد ذلك، واجتهدت محاكم التفتيش في نصب المحارق وملاحقة الأفكار وفرض الطرد الجماعي. وتوالت بعد ذلك صور مماثلة من الملاحقة ضد المسلمين نتجت عنها هجرات

جماعية، ومخيمات في مناطق تهجير تحولت إلى إقامة دائمة، وشتات تفرق بين البلدان لم يعد له من أوطانه إلا الذكرى واللغة وقصص الأجداد و بعض الأناشيد...

هذه الصور القاتمة من سجلات تاريخ الآخر، ينبغي إبرازها خاصة في زماننا هذا وفق معيار مراجعة في إطار علم الاستغراب الذي مفهومه "طلب الغرب ومعرفة آلياته في الاستدلال والنظر، ورصد أسس رؤيته للعالم وتحليل مدوناته بلغاتها الأصلية، في أفق محاورته وتصحيح ما ارتسم لديه من أفكار مسبقة حول المنظومات الثقافية المختلفة ومنها المنظومة الثقافية العربية الإسلامية" .

فهناك من أبناء الغرب من يجهل تلك الصور القاتمة، وهو إن علمها، ووقف على ما تحقق للأقليات الدينية في ظل الإسلام، لانت نفسه للحق، ولما نفذت إلى عقله أكاذيب النافخين في كير الإسلاموفوبيا التواقين إلى تأجيج الصراع ضد المسلمين.

وهنا لابد من التذكير أنه يتعين بذل مجهود في تعريف الغرب بنصوصه الدفينة، فأغلب مساحات التعصب عنده انبنت على ترجمات خاطئة بقصد أو عن غير قصد لتراثنا الإسلامي، هذا من جهة،

ومن جهة ثانية لابد من مراجعة موروثنا الفقهي الإسلامي أيضا، فبعض الصور التي استند إليها بعض الطاعنين في الإسلام ، لها ما يسندها في بعض كتب التراث وبخاصة تلك التي ألفت في أزمنة ضعف دولة المسلمين، وأوقات اختلال تصور العلماء لموقعهم في الفعل الحضاري للأمة.

إن للمسلمين حين الحديث عن تحالف الحضارات وتعارفها، سجل حافل عكست صوره كتب الفقه وكتب التاريخ، والحجج الوقفية، وغيرها، وهي صور تجلى

فيها العيش المشترك، وكيف استطاعت المجتمعات المسلمة أن تستضيف هويات وثقافات، وأن تقوم بحوكمتها في منظومة ثقافية متنوعة جامعة، اعترفت للآخر بحقوقه العقدية واللغوية والثقافية في دائرة منفتحة على دائرة أوسع هي دائرة الأمة، تماما كما ورد في دستور المدينة، حيث صارت القبائل والشعوب وأهل الأديان المختلفة في مجتمع المسلمين "أمة واحدة من دون الناس".

وختاما، ونظرا لما يعيشه العالم الإسلامي من توترات ونزاعات، وانتشار لدعاوى التشدد والغلو،

ونظرا لما تعاني منه الأمة من محاولات فرض مرجعيات دينية منمطة، في ظل تعطيل نخب العالم الإسلامي لقدراتها في مواكبة الأفكار وإبداع المفاهيم وتطوير التعريفات، وفق منهج تأصيلي دقيق يفتح باب المراجعة من أجل إعادة البناء، ويستحضر التجارب الناصعة التي راكمها الأسلاف في مجال العيش المشترك، ورعاية الحقوق، وحماية التنوع الثقافي، وإدارة الاختلاف،

نذكر، والذكرى تنفع المومنين، أن الوقت قد حان -خاصة في زمن هذه الجائحة الداهمة التي نزلت بالعالمين- أن نعمل على إبراز ما يحقق العيش المشترك بين المسلمين والمسلمين، وبينهم وبين غيرهم،

أغلب المنظومات الثقافية في العالم باتت تبحث لها عن موطئ قدم في زمن ما بعد الوباء، وهي الآن في مسار مراجعة مفتوحة لراهن حالها، بينما يستمر أزيز الرصاص مدويا مع الأسف في كثير من بلاد المسلمين، ولم يشفع شهر حرام ولا ظروف جائحة.

إن تحقيق العيش المشترك، وتحقيق الأمن الثقافي الشامل للأمة الإسلامية ممكن، وهو الآن لا يقبل التأجيل سيما وأن الظروف التي يجتازها العالم جد دقيقة.

لقد تحققت للأمة جميع أسباب النهوض، وقد حباها الله عز وجل بقوة بشرية هائلة، وعقول فاعلة، ومقدرات طبيعية جمة، وبقي عليها أن تتجاوز خلافاتها وتمتثل لأمر ربها فتحقن الدماء وتتنافس في العطاء، وتكون حقا "خير أمة أخرجت للناس"،

وتعمل وفق ما قررته الآية الكريمة في تفهم موضوع "العيش المشترك" ومبدإ التعارف بين الشعوب:

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ سورة الحجرات، الآية 13

والسلام عليكم ورحمة الله